الفصل السادس

ربطه ﷺ بيت المقدس بنفسه الشريفة

أولاً: بيت المقدس وميلاد النَّبي ﷺ

إذا كان مطلوب من كلِّ مسلم أن يحبّ رسول الله ﷺ أكثر من نفسه التي بين جنبيه، فإن كل ما يتعلق بالمصطفى سيكون محبباً ومعظماً لديه.. وهو ما جعل النَّبي ﷺ يذكر ما يحبه ويقدّره عندما يتعرض للأمور التي تخصه.. ويتجلى ذلك في ربطه لبيت المقدس بيوم ميلاده!!

إنه يوم عظيم حبيب، أطلّ فيه خير خلق الله على الوجود، وكل مسلم يتوق ويحبّ أن يسمع من نبيه ﷺ عن ذلك اليوم، وعندها سيسمع منه ما يرغبه ويحببه في الأرض المقدَّسة المباركة..

فعن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "**إني عند الله في أم الكتاب لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأنبئكم بتأويل ذلك، دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى قومه، ورؤيا أمي التي رأت أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام، وكذلك ترى أمهات النبيين صلوات الله عليهم**"[1].

وجاء برواية: "**إني عند الله مكتوب خاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته،**

---

(١) أخرجه أحمد: ٤/ ١٢٧، ١٢٨، والطبراني في الكبير: ١٨/ ٢٥٢، البيهقي في الدلائل: ١/ ٨٠، ٢/ ١٣٠، والآجري في الشريعة: ٤٢، والبخاري في التاريخ الكبير: ٦/ ٦٨، والبزار في الكشف: ٣/ ١١٢-١١٣، رقم ٢٣٦٥، والحاكم: ٢/ ٦٠٠، وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ٢٢٣): رواه أحمد والطبراني بنحوه، والبزار وأحد أسانيد أحمد رجاله =

وسأخبركم بأول أمري: دعوة إبراهيم، وبشارة عيسى، ورؤيا أمي التي رأت - حين وضعتني - وقد خرج لها نور أضاءت لها منه قصور الشام"[(١)].

وورد في رواية أخرى عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: «قلت: يا نبي الله ما كان أول بدء أمرك؟ قال: "**دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي نوراً أضاءت منها قصور الشام**"»[(٢)].

وما ذكره النَّبي ﷺ في هذا الحديث يعزز ما سأورده في نقاط قادمة حول تمام الأمر لهذا الدين في بيت المقدس، وهو ما يشير إليه ابن رجب الحنبلي في معرض حديثه عن ميلاد رسول الله ﷺ فبعد أن أورد حديث النَّبي ﷺ أن أمه قالت: «رأيت خرج مني نور أضاءت منه قصور الشام»، علّق على ذلك بقوله: أما إضاءة قصور الشَّام بالنور الذي خرج معه، فهو إشارة إلى ما خصَّ الشَّام من نور نبوّته بأنها دار ملكه، كما ذكر كعب أن في الكتب السابقة: (محمّد رسول الله، مولده بمكة ومهاجره يثرب وملكه بالشام)، فمن مكة بدأت نبوة محمّد رسول الله ﷺ وإلى الشَّام ينتهي ملكه، ولهذا أسري به ﷺ إلى الشَّام إلى بيت المقدس، كما هاجر إبراهيم عليه الصلاة والسلام من قبله إلى الشام.

قال بعض السلف: ما بعث الله نبياً إلا من الشام، فإن لم يبعثه منها هاجر

= رجال الصحيح غير سعيد بن سويد، ووثقه ابن حبان قلت: والحديث صحيح لأحاديث منها حديث أبي أمامة القادم، وبعض أصحاب النبي، وحديث ميسرة أخرجه أحمد: ٥/ ٥٩، والحاكم: ٢/ ٦٠٨، ٦٠٩، والبيهقي في الدلائل: ١/ ٨٤، ٨٥، وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ٢٢٣): ورجاله رجال الصحيح وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

(١) الراوي: العرباض بن سارية، المحدث: الألباني، المصدر: تخريج مشكاة المصابيح، الصفحة أو الرقم: ٥٦٩١، خلاصة الدرجة: [صحيح].

(٢) أخرجه أحمد: ٥/ ٢٦٢، والطيالسي: برقم ١١٤٠، والطبراني في الكبير: برقم ٧٧٢٩، وابن سعد: ١/ ١٠٢، والبيهقي في الدلائل: ١/ ٨٤، وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ٢٢٢): رواه أحمد وإسناده حسن، وله شواهد تقويه. ومن هذه الشواهد حديث خالد بن معدان عن أصحاب النَّبي ﷺ، أخرجه الحاكم: ٢/ ٦٠٠، والطبري: برقم ٢٠٧٠، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وقال ابن كثير في البداية (٢/ ٢٥٦): وهذا إسناد جيد قوي، قلت (إبراهيم العلي): الحديث حسن لشواهده.

إليها. وفي آخر الزمان يستقر العلم والإيمان بالشام، فيكون نور النبوة فيها أظهر منه في سائر بلاد الإسلام.

وقد أحسن شوقي بقوله:

لقد وضعته وهَّاجاً منيراً كما تلد السماوات الشهابا

بعد كل ذلك كيف لا يحبّ الصحابة -ونحن من بعدهم- أرضاً أضاءتها أنوار المصطفى يوم ميلاده ﷺ؟ كيف لا نعشق بلاداً اختارها الله من كل بلاد الأرض لتتلقى أنوار الهداية لحظة إشعاعها بمولد الحبيب المصطفى ﷺ؟

إضاءة: كان من هدي النَّبي ﷺ في غرس حبّ المسجد الأقصى المبارك ربطه بمناسبات عظيمة يحبها كل مسلم، ويحب كل ما يرتبط بها، كذكرى ميلاد المصطفى الذي تزامن مع سطوع أنوار الحبيب المصطفى لحظة ولادته في أرجاء تلك الأرض المقدَّسة.

ثانياً: قرَّة عين النَّبي ﷺ

لم يقتصر حث النَّبي أصحابه على سكنى بيت المقدس ومجاورته، بل إنه ذهب إلى أبعد من ذلك، إذ جعل مجرد النظر إليه غنيمة عظيمة، ومكسباً كبيراً، وهو ما عبَّر عنه الحديث الذي أوردته في نقطة سابقة عن أبي ذر رضي الله عنه، الذي جاء فيه: "**وليوشكنّ لأن يكون للرجل مثل شطن فرسه من الأرض، حيث يرى منه بيت المقدس، خير له من الدنيا جميعاً**".

وفي رواية: "**ولنعم المصلَّى في أرض المحشر والمنشر، وليأتينّ على الناس زمان لقيد سوط - أو قال: قوس- الرجل حيث يرى منه بيت المقدس خير له - أو أحبّ له- من الدنيا جميعاً**"(١).

(١) الراوي: أبو ذر الغفاري، المحدث: الألباني، المصدر: صحيح الترغيب، الصفحة أو الرقم: ١١٧٩، خلاصة الدرجة: صحيح. وقد أخرجه إبراهيم بن طهمان في مشيخته: برقم ٦٢، والحاكم في المسند، والمقدسي في فضائل بيت المقدس، والطحاوي في =

إنه ﷺ يخبر عن زمانٍ ما!! وأمتنا تمر هذه الأيام بوضع شبيه جداً بذلك الزمان الذي يخبر عنه النَّبي ﷺ في هذا الحديث، فما يكاد يستطيع أحد من أبناء هذه الأمة أن يزور الأقصى ويكحّل عينيه برؤيته، فضلاً عن أن يتملك قطعة من أرض بيت المقدس، فاليهود قد صادروا أرضها، وطردوا منها سكانها، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

والأمر له شواهد من سيرة النَّبي ﷺ، فإنه لمَّا اشتد أذى كفار قريش عليه وعلى أصحابه، وتوفي عمه أبو طالب وزوجته خديجة رضي الله عنها، وتوقف دخول الناس في هذا الدين من شدّة الصدّ عن سبيل الله.. ولم تفلح الجهود في نقل الدعوة إلى خارج مكة، إلى مدينة الطائف تحديداً، وتعرض للأذى النفسي والبدني على يد سفهاء الطائف.. لجأ رسول الله ﷺ إلى مناجاة ربه شاكياً باكياً، ظانّاً أن تعثّر الدعوة كان مبعثه أمر خاص به، فدعا بذلك الدعاء الرقيق:

"**اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت أرحم الراحمين، وأنت ربّ المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى عدو يتجهّمني، أم إلى قريب ملّكته أمري؟ إن لم تكن غضبان عليّ فلا أبالي، غير أنّ عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن ينزل بي غضبك، أو يحل بي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك**"[(١)].

وحتى يطمئن قلب نبينا ﷺ، ويوقن أن مكانته أعظم وأجلّ وأرفع من مكانة

= مشكل الآثار، والبيهقي في شعب الإيمان، وابن عساكر في تاريخ دمشق، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي وقال الهيثمي في المجمع: رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح، وصححه الألباني في تحذير الساجد، ١٩٨أيضاً.

(١) الراوي: عبد الله بن جعفر، المحدث: الهيثمي، المصدر: مجمع الزوائد، الصفحة أو الرقم: ٦/ ٣٨، خلاصة الدرجة: فيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة، وبقية رجاله ثقات. وورد في تفسير ابن كثير: ٤/ ١٦٤، والسيرة النبوية: ٢/ ٢٦٨. وحكم عليه الألباني بالضعف.

أي مخلوق في الكون بأسره، وأن هذه الشدة والبلاء وتعثر الدعوة ليس مردها شخص النَّبي ﷺ، أو غضب الله عليه، وحتى يرى بعينه هذه المكانة، اختار الله تعالى بيت المقدس ليكون قرة عين رسوله وحبيبه فيه، فكانت رحلة الإسراء والمعراج مباشرة بعد عودته من الطائف في ذلك الوقت العصيب، وكان من أهدافها: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١/١٧]، وهذه الآيات التي رآها النَّبي ﷺ في تلك الرحلة العجيبة جعلته قرير العين مطمئن النفس..

لقد قرّت عينه برؤية جبريل الأمين عليه السلام ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [النجم: ٥٣/ ١٣].

وقرّت عينه برؤية الأنبياء إذ جمعوا له في المسجد الأقصى المبارك ليكون إماماً لهم..

وقرّت عينه برؤية الآيات العظيمات ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ [النجم: ٥٣/ ١١-١٨].

وكما كان الأقصى قرة عين للنبي ﷺ خلال رحلة الإسراء والمعراج، فقد كان كذلك أيضاً بعد انتهائه منها وعودته إلى مكة، وحكايته لقومه ما عاينه فيها من آيات وهم يحاولون إحراجه.

وتتضح قرة عينه في الأقصى من خلال ذلك التعبير الدقيق الذي ساقه النَّبي ﷺ في حديثه عن ذلك بقوله: "**لقد رأيتني في الحجر، وقريش تسألني عن مسراي، فسألتني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها، فكربت كرباً ما كُربت مثله قط**"[(١)]. والعبارة الأخيرة تبيّن مدى ما حلّ بنبينا ﷺ من ضيقٍ وشدة، حتى إنه قال: "**ما كربت مثله قط**"، أي إن كل ما عاناه فيما سبق من قتلٍ وتعذيبٍ

(١) الراوي: أبو هريرة، المحدث: الألباني، المصدر: صحيح الجامع، الصفحة أو الرقم: ٥١٣٥، خلاصة الدرجة: [صحيح]. وقد أخرجه مسلم: ١٧٢، والنسائي.

obeikandl.com

لأصحابه، وتكذيب له ولدعوته،لم يعدل ما ألمّ به في ذلك الموقف، فكان الفرج من ذلك الكرب، والمخرج من ذلك الضيق، رؤية بيت المقدس، كما ورد في تكملة الحديث "**فكربت كرباً ما كربت مثله قط، فرفعه الله لي أنظر إليه، ما يسألوني عن شيء إلا أنبأتهم به**".

وقد ورد ذلك برواية أخرى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قال رسول الله ﷺ: "**لما كان ليلة أسري بي وأصبحت بمكة، فظعت بأمري، وعرفت أن الناس مكذبي**"، فقعد معتزلاً حزيناً.

فمرَّ عدو الله أبو جهل، فجاء حتى جلس إليه، فقال له كالمستهزئ: هل كان من شيء؟

فقال رسول الله ﷺ: "**نعم**".

قال: ما هو؟

قال: "**إنه أسري بي الليلة**".

قال: إلى أين؟

قال: "**إلى بيت المقدس**".

قال: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟

قال: "**نعم**".

فلم ير أنه يكذبه مخافة أن يجحده الحديث إذا دعا قومه إليه، قال: أرأيت إن دعوت قومك تحدثهم ما حدثتني؟

فقال رسول الله ﷺ: "**نعم**".

فقال: هيا معشر بني كعب بن لؤي.

قال: فانتفضت إليه المجالس، وجاؤوا حتى جلسوا إليهما.

obeikandl.com

قال: حدِّث قومك بما حدثتني.

فقال رسول الله ﷺ: "**إني أسري بي الليلة**".

قالوا: إلى أين؟

قال: "**إلى بيت المقدس**".

قالوا: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟

قال: "**نعم**".

قال: فمن بين مصفق، ومن بين واضع يده على رأسه متعجباً للكذب؛ زعم قالوا: وهل تستطيع أن تنعت لنا المسجد؟ وفي القوم من قد سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد.

فقال رسول الله ﷺ: "**فذهبت أنعت، فمازلت أنعت حتى التبس عليّ بعض النعت، قال: فجيء بالمسجد وأنا أنظر، حتى وضع دون دار عقال -أو عقيل- ، فنعته وأنا أنظر إليه**". قال: وكان مع هذا نعت لم أحفظه.

فقال القوم: أما النعت! فوالله لقد أصاب»[(١)].

وجاء أيضاً في حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: "**لما كذبتني قريش، قمت في الحجر، فجلا الله لي بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه**"[(٢)].

---

(١) الراوي: عبد الله بن عباس، المحدث: الألباني، المصدر: السلسلة الصحيحة، الصفحة أو الرقم: **٣٠٢١**، خلاصة الدرجة: إسناده [صحيح]. وقد أخرجه أحمد في المسند، والطبراني في الكبير، والنسائي في الكبرى، وقال الهيثمي في المجمع: رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير والأوسط، ورجال أحمد رجال الصحيح، وصححه أحمد شاكر في تعليقه على المسند: رقم ٤/ ٢٩٣.

(٢) الراوي: جابر بن عبد الله، المحدث: البخاري، المصدر: صحيح البخاري، الصفحة أو الرقم: **٣٨٨٦**، وفي صحيح مسلم، الصفحة أو الرقم: **١٧٠**، خلاصة الدرجة: [صحيح].

وهكذا كان المسجد الأقصى المبارك قرة عين للنبي ﷺ ومفرجاً لكربه، مزيلاً لهمّه وغمّه، مرغماً لأعدائه وداحضاً لشكوكهم وتشكيكهم، وهو كذلك لكل محزون مكروب مهموم من أبناء أمته..

إضاءة: عندما يجعل النَّبي ﷺ مجرد رؤية بيت المقدس تعدل الدنيا وما فيها، فإنه يشيد بذلك أساسات بناء لحب وتقدير لا يمكن أن يهدما في نفوس أمته لذلك المسجد المبارك قرة عينه ﷺ وأصحابه من بعده.

ثالثاً: صلاته ﷺ إماماً بالأنبياء في المسجد الأقصى المبارك

إن من كرامة نبينا صلوات الله وسلامه عليه، أن أي شيء يتصل به من جماد أو إنسان، بل حتى الزمان، يرتفع قدره، ويعلو شأنه، فلصحابته منزلة لا يصل إليها أحد من أمته بقوله: "**خير القرون قرني..**"(١)، ولأمهات المؤمنين منزلة عالية رفيعة لا ينافسهن فيها أحد بقول الله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٣٢] الآية، وكذلك الأماكن التي مرّ بها لها مكانة خاصة متميزة من غيرها من الأماكن، وتزداد تلك المكانة إن شهدت تلك الأماكن عبادة للنبي ﷺ فيها؛ لأنه خير من صلَّى وصام وذكر الله وعبده، فمقام العبودية لله لا يضاهيه مقام آخر ولذلك اختاره الله في وصفه لنبيه ﷺ في مواضع عديدة في القرآن الكريم، فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١٧/ ١]، وقال: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الجن: ٧٢/ ١٩] وغيرها من الآيات.. وعليه فالموضع الذي صلَّى فيه النَّبي ﷺ ينال مرتبة أعلى من ذلك الذي مرَّ به مروراً عابراً فكيف إذا صلَّى فيه إماماً؟! وكيف إذا كان إماماً لصفوة الخلق؟!

---

(١) الراوي: عبد الله بن مسعود وعمران بن حصين وأبو هريرة وعائشة، المحدث: الألباني، المصدر: تصحيح العقائد، الصفحة أو الرقم: ٣٦، خلاصة الدرجة: أخرجاه في الصحيحين: "خير الناس قرني" "خير أمتي قرني".

إن البيت الحرام شهد صلاة النَّبي إماماً بالمسلمين فنال شرفاً على شرف، وهو بذلك اشترك مع المسجد الأقصى في هذه الميزة، وإن كان الأخير قد حاز على ميزة أكبر، بصلاة النَّبي ﷺ إماماً بالنبيين والمرسلين، فحاز المسجد الأقصى المبارك بذلك شرف الإمام وشرف المؤتمّين خلفه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين..

وقد وردت أحاديث عديدة عن هذه الصلاة منها:

حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "**لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مسراي**" وفيه: "**وحانت الصلاة فأممتهم..**"[(١)].

ومن حديث ابن عباس رضي الله عنهما حيث قال: ".. فلما دخل النَّبي ﷺ المسجد الأقصى قام فصلَّى، فالتفت ثم التفت، فإذا النبيون أجمعون يصلون معه"[(٢)].

ونقل السيوطي في (الآية الكبرى) وقال ابن حاتم في تفسيره وهو حديث طويل جاء فيه "**ثم انصرفت فلم ألبث إلا يسيراً حتى اجتمع ناس كثير، ثم أذن مؤذن وأقيمت الصلاة، قال: فقمنا صفوفاً ننتظر من يؤمنا، فأخذ بيدي جبريل، فقدمني فصليت بهم، فلما انصرفت قال جبريل: يا محمّد أتدري من صلى خلفك؟ قال: قلت: لا، قال: صلّى خلفك كل نبي بعثه الله**".

أما ابن كثير فقد قال ضمن تفسيره لآية ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: ١/١٧]: «هو بيت المقدس الذي بإيلياء، معدن[(٣)] الأنبياء من إبراهيم الخليل عليه السلام، ولهذا جمعوا له هناك ﷺ كلهم. فأمّهم في محلتهم ودارهم

(١) الراوي: أبو هريرة، المحدث: مسلم، المصدر: صحيح مسلم، الصفحة أو الرقم: ١٧٢، خلاصة الدرجة: [صحيح]. وأخرجه النسائي في الكبرى: برقم ١١٤٨، ١١٢٨٤.

(٢) الراوي: عبد الله بن عباس، المحدث: أحمد شاكر، المصدر: مسند أحمد، الصفحة أو الرقم: ٤/ ٩٣، خلاصة الدرجة: إسناده [صحيح]. وابن كثير في التفسير: ٣/ ١٤، وقال: إسناده صحيح ولم يخرجوه، وصححه ابن حجر في الفتح: ٧/ ٢٠٩.

(٣) معدن الأنبياء: أي الأصل الذي نبتوا فيه.

فدل على أنه ﷺ هو الإمام المعظم والرئيس المقدم»[١]. وقد جاء في تفسير ابن كثير أيضاً: «والحق أنه عليه السلام أسري به يقظة لا مناماً، من مكة إلى بيت المقدس. راكباً البراق، فلما انتهى إلى باب المسجد ربط الدابة عند الباب ودخله فصلى في قبلته تحية المسجد ركعتين ثم أتى المعراج وهو كالسلم ذو درج يرقى فيها فصعد فيه إلى السماء الدنيا ثم إلى بقية السماوات السبع فتلقاه من كل سماء مقربوها وسلَّم على الأنبياء الذين في السماوات بحسب منازلهم ودرجاتهم.. ورأى الجنة والنار، وفرض الله عليه هنالك الصلوات خمسين ثم خففها إلى خمس رحمة منه ولطفاً بعباده، وفي هذا اعتناء عظيم بشرف الصلاة وعظمتها، ثم هبط إلى بيت المقدس، وهبط معه الأنبياء، فصلَّى بهم فيه لما حانت الصلاة، ويحتمل أنها الصبح من يومئذ، ومن الناس من يزعم أنه أَمَّهم في السماء، والذي تظاهرت به الروايات أنه ببيت المقدس، ولكن في بعضها أنه كان أول دخوله إليه، والظاهر أنه بعد رجوعه إليه، لأنه لما مر بهم في منازلهم، جعل يسأل عنهم جبريل واحداً واحداً، وهو يخبر بهم، وهذا هو اللائق، لأنه كان أولاً مطلوباً إلى الجناب العلوي ليفرض عليه وعلى أمته ما يشاء الله تعالى، ثم لمَّا فرغ من الذي أريد به، اجتمع به هو وإخوانه من النبيين، ثم أظهر شرفه وفضله عليهم بتقديمه في الإمامة وذلك عن إشارة جبريل عليه السلام في ذلك، ثم خرج من بيت المقدس، فركب البراق وعاد إلى مكة بغلس، والله سبحانه وتعالى أعلم»[٢].

وعن صلاته إماماً بالمسجد الأقصى المبارك ودلالاتها، يورد د. صلاح الخالدي بعض الأمور الهامة التي تظهر مكانة الأقصى كونه منصة التكريم التي تم عليها تكريم نبينا ﷺ وتعريفه بقدره الرفيع.. فيقول:

«جمع الله الأنبياء والرسل السابقين لمحمّد ﷺ في تلك الليلة، في المسجد الأقصى، ومنهم أنبياء ورسل بني إسرائيل، فأمهم في الصلاة؛ أي صلَّى بهم

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ٢٢.
(٢) تفسير ابن كثير: ٣/ ٢٤.

إماماً، وصلوا هم خلفه مأمومين!! وجمعهم هذا جمع غيبي، لا نعرف كيف جرى، وهو غير خاضع للقوانين والأسباب المادية، لأن الرسل غادروا هذه الحياة الدنيا، والتحقوا بالرفيق الأعلى، فهم في حساب البشر أموات. ولكنهم عند الله أحياء، حياة خاصة غيبية، كما أراد الله سبحانه، ثم إن صلاتهم في المسجد الأقصى مأمومين خلف رسول الله ﷺ، تقدم لنا بعض الدلالات:

منها: اعتراف هؤلاء الرسل بفضل رسول الله ﷺ ومكانته عند الله ومنزلته، وتسليمٌ بأنه أفضل الخلق أجمعين، وإمام الأنبياء والمرسلين في السير إلى طريق الله وفي القرب من الله.

ومنها: اعتراف هؤلاء الأنبياء والمرسلين بختم النبوة والرسالة بنبوة محمّد ﷺ ورسالته، فلا وحي بعده، ولا نبي يأتي بعده، ولا رسالة بعد رسالته، وهو اعتراف منهم أيضاً بنسخ رسالتهم برسالته، ونسخ كتبهم بكتابه، فلا عمل بالتوراة أو الزبور أو الإنجيل بعد إنزال الله للقرآن.

ومنها: دعوة هؤلاء الأنبياء والمرسلين، بخاصة أنبياء بني إسرائيل، لأقوامهم وأتباعهم بالدخول في الإسلام، والإيمان بالقرآن، واتباع محمّد ﷺ والتخلي عما كانوا عليه من اليهودية أو النصرانية، إن أرادوا القبول عند الله ودخول الجنة. فإن لم يستجيبوا له، ولم يدخلوا في دينه، فهم كفار ضالون، مخلدون في النار، وإن ادّعوا أنهم على طريق إبراهيم أو موسى أو عيسى عليهم الصلاة والسلام.

ومنها: تسليم هؤلاء الأنبياء والمرسلين "مفاتيح" الأرض المقدَّسة إلى محمّد ﷺ وأمته. فمعظم هؤلاء عاشوا على الأرض المقدَّسة، وكان هو المسؤول عنها، الراعي لها، الخليفة عليها، وأنوار رسالته ونبوته انتشرت عليها، وبقيت حلقات النبوة والرسالة والخلافة على الأرض المقدَّسة، إلى أن ختمت هذه الحلقات بنبوة رسالة محمّد ﷺ الدائمة إلى قيام الساعة. في ليلة الإسراء جاء الأنبياء وسلَّموا محمّداً ﷺ المسؤولية والخلافة والأمانة والعهد،

obeikandl.com

وأوكلوا له -ولأمته من بعده- مهمة الأرض المقدَّسة، ورعايتها وحمايتها، والخلافة عن الله فيها، واستمرار الإيمان عليها، حتى قيام الساعة.. وجعل الصلاة ميداناً ومجالاً لهذا الانتقال، جواً مناسباً للتسلم والتسليم، حيث محمّد ﷺ هو الإمام والأنبياء خلفه مأمومون مسلمون له، يعطي دلالة واضحة على أهمية الصلاة والعبادة ووجوب تعمقها في أمة الإمامة والخلافة، التي تناط بها مسؤولية الإشراف على الأرض المقدَّسة.

إن الأقوام السابقين من اليهود والنصارى ليسوا مصلين لله صدقاً، ولا عابدين له حقاً، ولذلك انتزع الله منهم هذه الخلافة والإمامة، وجعلها في أمة العبادة والصلاة، وتسلم رسولها محمّد ﷺ هذه المهمة والمسؤولية من إخوانه الأنبياء في الصلاة.

ومنها: أن رسول الله ﷺ كان أول فاتح للأرض المقدَّسة ليلة الإسراء، وهذا منه عهد لأمته من بعده، بأن تفتح هذه الأرض المقدَّسة عملياً، بعد أن فتحها هو نظرياً، وتسلَّم مفاتيحها من إخوانه الأنبياء، وهذه بشرى لأمته منه، بأنها ستفتح هذه الأرض المقدَّسة، وتنشر فيها الإسلام، وتحقق فيها الخلافة الربانية الراشدة، ولقد حققت هذه الأمة هذا الأمر بعد محمّد ﷺ وفهمت منه هذا الإيحاء، وأخذت عنه هذه الإشارة»[١].

ولله در القائل[٢]:

إن كنتَ تسألُ أين قَدرُ محمّد بينَ الأنامْ
فأَصِخْ إلى آياته تظفرْ بِريِّك في الأُوامْ[٣]
أكرِم بعبدٍ سَلَّمَتْ تقديمَهُ الرّسلُ الكرامْ

(١) من مقالة للدكتور صلاح الخالدي بعنوان: الرسول يتسلم مفاتيح الأرض المقدَّسة، مجلة فلسطين المسلمة، عدد أيلول/ سبتمبر ١٩٩٣م.

(٢) المؤرخ الشيخ أحمد بن محمّد المقري التلمساني: بيت المقدس والمسجد الأقصى، ١٩٥.

(٣) الأوام: العطش الشديد.

في حضرةٍ للقدسِ وافا ... ها بعزٍّ واحترام
صَفّوا وصلُّوا خلفه ... إنَّ الجماعةَ بالإمامْ
للشُّهب نُورٌ بيِّنٌ ... والفضلُ للقَمر التمام
سِلْكُ النبوة باهرٌ ... وبأحمد خُتِمَ النظامْ

وأضيف بأن تقديمه ﷺ إماماً في بيت المقدس يعطي دلالة قاطعة بأن بيت المقدس وأكنافه المباركة هي ملك خالص لمحمّد ﷺ وأمته من بعده، فقد جاء في الحديث قوله ﷺ: "**لا يؤم الرجل في سلطانه، و لا يجلس على تكرمته في بيته إلا بإذنه**" (١).

فبيت المقدس طبقاً لهذا الحديث هو جزء من سلطان النَّبي ﷺ وملكه، وإلا لما قدَّمه الأنبياء إماماً إن كان هناك أحد منهم مالكاً له هو أو أمته.

إنه ﷺ وهو يقص على أصحابه تفاصيل رحلته المعجزة، لم يذكر أي تفاصيل لها، إلا وإنها ليترتب عليها أحكام مهمة تتعلق ببيت المقدس وولاية أمته عليها، فهو لم يذكر لأصحابه مسألة إمامته للأنبياء افتخاراً واستعلاءً على إخوانه الأنبياء والمرسلين، حاشاه ﷺ، وإنما أراد أن يوصل رسالة واضحة إليهم أن بيت المقدس هو جزء لا يتجزأ من أملاك الدولة الإسلامية وسلطانها. وما على أمة الإسلام إلا أن يتعاملوا بحزم وقوة مع كل من يدَّعي أن لليهود أو النصارى أي حق في بيت المقدس، فإذا كان أنبياؤهم أقروا لنبينا ﷺ بأحقيته هو وأمته به، فلا يحق لأحد بعدهم أن يبدي أي رأي مخالف لذلك، وتتألق هنا تلك العبارة التي سطعت إبان انتفاضة الأقصى المبارك فكانت شعاراً صادقاً بأن: (الأقصى لأمة الإسراء.. لا لقتلة الأنبياء).

إضاءة: أخبرنا رسول الله ﷺ بصلاته إماماً بالنبيين في المسجد الأقصى المبارك ليعلمنا بعظيم قدره وانتقال ولايته من أنبياء بني إسرائيل إلى أمة الإسلام.

(١) الراوي: عبد الله بن مسعود، المحدث: الألباني، المصدر: صحيح الجامع، الصفحة أو الرقم: ٧٥٨١، خلاصة الدرجة: [صحيح].

openkandil.com

رابعاً: رؤيته منزله ﷺ وأحوالاً أخروية ببيت المقدس

أسوق لهذه النقطة حديثاً طويلاً يغفل عن كنوزه الكثيرون، ويخلط آخرون محتواه بأحاديث الإسراء، ذلك أنه يشبه في بعض جوانبه ما رآه النَّبي ﷺ من آيات ليلة الإسراء، إذ إن هذا الحديث يحكي رؤيا رآها النَّبي ﷺ في منامه، وقد أوردت سابقاً أن رحلة الإسراء والمعراج كانت بروحه وجسده ﷺ ولم تكن في منامه. وهذا فارق جذري مع ما أورده هنا في هذا الحديث المبهر، ومع أنني لم أفرد نقطة خاصة بالإسراء والمعراج، إلا أنني عرجت على بعض ما حدث فيهما واكتفيت بذلك، لكنني أؤكد هنا أن ما تحويه هذه النقطة مغاير تماماً لحادثة الإسراء، وإن كان في تقاطعاته معها يخدم تعزيز مكانة الأرض المقدَّسة وبيان ما لها من مكانة رفيعة في ديننا، ليس فقط في الحياة الدنيا ولكنها تمتد إلى الحياة الآخرة..

ولو سئل أحدنا: هل رأى رسول الله ﷺ منزله الذي أعده الله له في الآخرة؟ فقد يأخذ بنا الخيال كل مأخذ، أما الحقيقة التي يسوقها هذا الحديث فهي الإجابة عن هذا السؤال بأنه رآه عندما ذهب إلى الأرض المقدَّسة في المنام، ورؤى الأنبياء حق. فأيّ شعور يمكن أن يعتري أصحاب النَّبي ﷺ وهو يقص عليهم مثل هذا الخبر الجميل الحميم جداً إلى نفس الرسول ﷺ وأصحابه المحبين له.. وهو يخبرهم بذلك وقلوبهم وأرواحهم ذاهبة إلى حيث أخذهم في مطلع حديثه.. إلى الأرض المقدَّسة التي رأى فيها كل تلك العجائب والغرائب الشائقة، التي توَّجها بمسك الختام وهو رؤية منزله ﷺ؟..

فعن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: «كان النَّبي ﷺ إذا صلَّى صلاة، أقبل علينا بوجهه، فقال: من رأى منكم الليلة رؤيا؟ قال: فإن رأى أحد قصَّها، فيقول: ما شاء الله. فسألنا يوماً فقال: "**هل رأى أحد منكم رؤيا؟**". قلنا: لا، قال: "**لكني رأيت الليلة رجلين أتياني فأخذا بيدي، فأخرجاني إلى الأرض المقدَّسة، فإذا رجل جالس، ورجل قائم، بيده كلّوب من حديد**". قال بعض أصحابنا عن

موسى: "إنه يدخل ذلك الكلّوب في شدقه حتى يبلغ قفاه، ثم يفعل بشدقه الآخر مثل ذلك، ويلتئم شدقه هذا، فيعود فيصنع مثله. قلت: ما هذا؟ قالا: انطلق، فانطلقنا، حتى أتينا على رجل مضطجع على قفاه، ورجل قائم على رأسه بفهر، أو صخرة، فيشدخ بها رأسه، فإذا ضربه تدهده الحجر، فانطلق إليه ليأخذه، فلا يرجع إلى هذا، حتى يلتئم رأسه، وعاد رأسه كما هو، فعاد إليه فضربه، قلت: من هذا؟ قالا: انطلق، فانطلقنا إلى ثقب مثل التنور، أعلاه ضيق وأسفله واسع، يتوقد تحته ناراً، فإذا اقترب ارتفعوا، حتى كادوا أن يخرجوا، فإذا خمدت رجعوا فيها، وفيها رجال ونساء عراة، فقلت: من هذا؟ قالا: انطلق، فانطلقنا، حتى أتينا على نهر من دم فيه رجل قائم، وعلى وسط النهر" قال يزيد ووهب بن جرير، عن جرير بن حازم: "وعلى شط النهر رجل بين يديه حجارة، فأقبل الرجل الذي في النهر، فإذا أراد أن يخرج رمى الرجل بحجر في فيه، فرده حيث كان، فجعل كلما جاء ليخرج رمى في فيه بحجر، فيرجع كما كان، فقلت: من هذا؟ قالا: انطلق، فانطلقنا، حتى انتهيا إلى روضة خضراء، فيها شجرة عظيمة، وفي أصلها شيخ وصبيان، وإذا رجل قريب من الشجرة، بين يديه نار يوقدها، فصعدا بي في الشجرة، وأدخلاني داراً، لم أر قط أحسن منها، فيها رجال شيوخ، وشباب ونساء وصبيان، ثم أخرجاني منها فصعدا بي الشجرة، فأدخلاني داراً، هي أحسن وأفضل، فيها شيوخ وشباب، قلت: طوَّفتماني الليلة، فأخبراني عما رأيت. قالا: نعم، أما الذي رأيته يشق شدقه فكذاب، يحدث بالكذبة، فتحمل عنه حتى تبلغ الآفاق، فيصنع به إلى يوم القيامة، والذي رأيته يشدخ رأسه، فرجل علَّمه الله القرآن، فنام عنه بالليل، ولم يعمل فيه بالنهار، يُفعل به إلى يوم القيامة، والذي رأيته في الثقب فهم الزناة، والذي رأيته في النهر آكلو الربا، والشيخ في أصل الشجرة إبراهيم عليه السلام، والصبيان حوله فأولاد الناس، والذي يوقد النار مالك خازن النار، والدار الأولى التي دخلت دار عامة المؤمنين، وأما هذه الدار فدار الشهداء، وأنا جبريل، وهذا ميكائيل، فارفع رأسك، فرفعت رأسي، فإذا فوقي مثل السحاب،

قالا: ذاك منزلك، قلت: دعاني أدخل منزلي، قالا: إنه بقي لك عمر لم تستكمله، فلو استكملت أتيت منزلك"»[1].

ترى، هل لرؤية النَّبي ﷺ لتلك المشاهد والأحوال الأخروية علاقة بما ذكره في أحاديث أخرى عن كونها أرض المحشر والمنشر؟

هل هناك علاقة بين ذلك الوعيد الشديد، والترهيب من ارتكاب المعاصي، والتهاون في الطاعات، وبين حديثه: "**إذا فسد أهل الشَّام فلا خير فيكم**"؟

إنه حديث جامع لكل ما من شأنه تزكية النفس وشحذ الهمّة ليصل بها إلى مرتبة المجاهدين الذين تحتاج إليهم الأرض المقدَّسة على مدى الزمان، وهو ما أشار إليه رسول الله ﷺ في حديثه: "**سيصير الأمر إلى أن تكونوا جنوداً مجندة**"، واختياره الشام.

هل هناك علاقة بين رؤيته لدار الشهداء وإخباره عن كثرة شهداء الشَّام (وهو ما سيرد لاحقاً)؟

إضاءة: يربط النَّبي ﷺ قلوب أصحابه ببيت المقدس بوصفه لهم أجمل الرؤى التي رأى فيها بيته في الآخرة، هناك.. عندما ذهب إلى الأرض المقدسة في منامه.

خامساً: حوض النبي ﷺ وبيت المقدس

كرّم الله نبيه ﷺ بصلاته إماماً بالأنبياء والمرسلين في بيت المقدس، وحباه الله كرامة أخرى في الدار الآخرة تتمثل في إعطائه الحوض المورود الذي تهفو إليه قلوب المؤمنين المحبين لنبيهم. ولم لا وقد اختاره ﷺ مكاناً للقاء أحبابه بعد

(١) الراوي: سمرة بن جندب، المحدث: البخاري، المصدر: صحيح البخاري، الصفحة أو الرقم: ١٣٨٦، خلاصة الدرجة: [صحيح]. وأخرجه الألباني في صحيح الجامع، الصفحة أو الرقم: ٣٤٦٢.

طول الفراق.. فقد قال ﷺ للأنصار: "**إنكم ستلقون بعدي أَثَرة**[١] **فاصبروا حتى تلقوني على الحوض**"[٢].

هذا أنس بن مالك رضي الله عنه يفكر في ذلك الموقف المصيري، فيسارع إلى الاستفسار عن أمر يهمه جداً فيقول: «سألت النبي ﷺ أن يشفع لي يوم القيامة. فقال: "**أنا فاعل**". قلت: يا رسول الله، فأين أطلبك؟ قال: "**اطلبني أول ما تطلبني على الصراط**"، قال: قلت: فإن لم ألقك على الصراط؟ قال: "**فاطلبني عند الميزان**"، قلت: فإن لم ألقك عند الميزان؟ قال: "**فاطلبني عند الحوض، فإني لا أخطئ هذه الثلاث المواطن**"»[٣].

إنه الموعد إذن، وهو اللقاء الذي تتوق إليه نفوس المحبين من أتباعه الذين أحبوه وساروا على هديه وسنته وجاهدوا معه، هم والذين جاؤوا من بعدهم فتعلقت قلوبهم به وإن لم يروه، ولهجت ألسنتهم بالابتهال في دعائهم أن يوردهم الله حوضه ويسقيهم من يده الشريفة شربة هنيئة لا يظمؤون بعدها أبداً وهم على يقين أنه ﷺ سيعرفهم ويهش ويبش لهم كما في الحديث أن رسول الله ﷺ أتى المقبرة فقال: "**السلام عليكم دار قوم مؤمنين. وإنا إن شاء الله بكم لاحقون. وددت أنّا قد رأينا إخواننا**" قالوا: أولسنا إخوانك يا رسول الله؟ قال: "**أنتم أصحابي. وإخواننا الذين لم يأتوا بعد**". فقالوا: كيف تعرف من لم يأت بعد من أمتك يا رسول الله؟ فقال: "**أرأيت لو أن رجلاً له خيل غر محجلة. بين ظهري خيل دهم بهم. ألا يعرف خيله؟**" قالوا: بلى يا رسول الله! قال: "**فإنهم يأتون غُرّاً محجلين من الوضوء. وأنا فرطهم على الحوض. ألا ليذادنَّ**

---

(١) الأثرة: استئثار الأمراء بأموال بيت المال.

(٢) الراوي: عبد الله بن زيد بن عاصم، البخاري، المصدر: صحيح البخاري، الصفحة أو الرقم: ٤٣٣٠، ومسلم، المصدر: صحيح مسلم، الصفحة أو الرقم: ١٠٦١، والحديث متفق عليه، خلاصة الدرجة: [صحيح].

(٣) الراوي: أنس بن مالك، المحدث: الألباني، المصدر: صحيح الترمذي، الصفحة أو الرقم: ٢٤٣٣، خلاصة الدرجة: [صحيح].

obeikandl.com

رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال. أناديهم: ألا هلم! فيقال: إنهم قد بدلوا بعدك. فأقول: سحقاً سحقاً". وفي رواية: "**فليذادن رجال عن حوضي**"[(١)].

وهل أجمل من ذلك المكان الذي سيشهد ذلك اللقاء المرتقب؟ إننا لو تركنا لأنفسنا العنان لتخيل ذلك المكان لما قاربنا معشار وصف الحبيب ﷺ له، ولما شعرنا بتلك الحلاوة الممزوجة بالهيبة والرهبة عند سماع أوصافه التي ساقها لنا الحبيب ﷺ؛ كي تتعلق قلوبنا به وتتهذب أرواحنا وتستقيم أعمالنا على هديه، مخافة أن نرد ونبعد عنه. ولتتمعنوا بوصفه العجيب وهو يقول: "**حوضي مسيرة شهر، ماؤه أبيض من اللبن وريحه أطيب من المسك، وكيزانه**[(٢)] **كنجوم السماء، من شرب منه فلا يظمأ أبداً**"[(٣)]. ويقول عنه: "**إني لبعقر حوضي**[(٤)] **أذود الناس لأهل اليمن، أضرب بعصاي حتى يرفَضَّ**[(٥)] **عليهم**"، فسئل عن عرضه فقال: "**من مقامي إلى عمَّان**"، وسئل عن شرابه فقال: "**أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل، يغُتُّ فيه ميزابان**[(٦)] **يمدانه من الجنة أحدهما من ذهب والآخر من ورِق**[(٧)]"[(٨)].

---

(١) الراوي: أبو هريرة المحدث: مسلم، المصدر: صحيح مسلم، الصفحة أو الرقم: ٢٤٩، خلاصة الدرجة: [صحيح].

(٢) كيزانه: أي آنيته.

(٣) الراوي: عبدالله بن عمرو بن العاص، المحدث: البخاري، المصدر: صحيح البخاري، الصفحة أو الرقم: ٦٥٧٩، ومسلم، المصدر: صحيح مسلم، الصفحة أو الرقم: ٢٢٩٢، والحديث متفق عليه، خلاصة الدرجة: [صحيح].

(٤) عقر الحوض: قيل هو موقف الإبل منه عند الورود وقيل مؤخره.

(٥) يرفض: أي يسيل.

(٦) أي يدفقان فيه الماء دفقاً شديداً.

(٧) الورِق: أي الفضة.

(٨) الراوي: ثوبان مولى رسول الله، المحدث: مسلم، المصدر: صحيح مسلم، الصفحة أو الرقم: ٢٣٠١، خلاصة الدرجة: [صحيح].

وما يزيد الأمر رهبة وتأثيراً في النفس اختلاف العلماء في الحوض والورود عليه، أين يكون ومتى الورود؟ فقد قيل: إنه يكون قبل المرور على الصراط إذ يُحشر الناس عطاشى، فيرد المؤمنون الحوضَ ويتساقط الكفار في النار بعد أن يَسألوا السقيا، وقيل: إنه يكون بعد الحساب والميزان والصراط. والأول أقرب، والله أعلم.

والأخطر من كل ذلك انكشاف خبايا النفوس وافتضاح أمر المنافقين والمخالفين لهدي المصطفى ﷺ في ذلك الموقف المهيب والذي يصوره حديث نبينا ﷺ: "**إني على الحوض حتى أنظر من يرد عليَّ منكم، وسيؤخذ ناسٌ دوني فأقول: يا رب مني ومن أمتي؟ فيقال: هل شعرت ما عملوا بعدك؟ والله ما برحوا يرجعون على أعقابهم**"[(١)] فكان ابن أبي مليكة يقول: اللهم إنا نعوذ بك أن نرجع على أعقابنا، أو نفتن عن ديننا..

وحق له أن يتعوذ بالله من النكوص على الأعقاب والفتنة في الدين، فعاقبتهما وخيمة، ففي رواية أنه ﷺ يقول: "سحقاً سحقاً". وما أخوفها من كلمات وأخطرها على من تعلق قلبه بالحبيب طوال حياته ليتبين له في خاتمة المطاف أنه من أولئك الذين كانوا يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، وهم أبعد ما يكونون عن الإحسان!!

ففي الحديث: "**أنا فرطكم على الحوض، من ورده شرب منه، ومن شرب منه لم يظمأ بعده أبداً، ليردنّ عليَّ أقوام أعرفهم ويعرفونني، ثم يحال بيني وبينهم**". قال أبو حازم: فسمعني النعمان بن أبي عياش وأنا أحدثهم هذا، فقال: هكذا سمعت سهلاً؟ فقلت: نعم، قال: وأنا أشهد على أبي سعيد

(١) الراوي: أسماء بنت أبي بكر، المحدث: البخاري، المصدر: صحيح البخاري، الصفحة أو الرقم: ٦٥٩٣، ومسلم، المصدر: صحيح مسلم، الصفحة أو الرقم: ٢٢٩٣، والحديث متفق عليه. خلاصة الدرجة: [صحيح].

الخدري لسمعته يزيد فيه قال: "**إنهم مني، فيقال: إنك لا تدري ما بدلوا بعدك، فأقول: سحقاً سحقاً لمن بدل بعدي**"(١).

ذلك الحوض الذي أوردت وصفه ومكانته ومدى اهتمام النبي ﷺ به وبوصفه لأصحابه وأمته واعتزازه العظيم بل فرحه الغامر بأن الله خصه به كما في الحديث: «بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا، إذ أغفى إغفاءة. ثم رفع رأسه متبسماً. فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: "**أنزلت عليَّ آنفاً سورة**". فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ [الكوثر: ١٠٨/١-٣]" ثم قال: "**أتدرون ما الكوثر؟**" فقلنا: الله ورسوله أعلم. قال: "**فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل، عليه خير كثير، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم، فيُختلَج العبد منهم. فأقول: رب! إنه من أمتي. فيقول: ما تدري ما أحدَثَتْ بعدك**" »(٢).

إننا ونحن نتناول موضوع الحوض إنما نعرض لمسألة هامة جداً من مسائل العقيدة التي اشترط العلماء الإيمان المطلق بها باعتبارها واحدة من مقتضيات تلك العقيدة، فقد ضل المعتزلة والخوارج وارتكسوا بإنكارهم لوجود الحوض، مع تواتر الأحاديث الصحيحة عنه.. ولقد وردنا عن نبينا ﷺ أنه رآه في الدنيا لتتعلق قلوبنا ونفوسنا به، ونؤمن به كأننا رأيناه عياناً، فيقيننا وثقتنا بما رآه نبينا أعظم والله مما تراه أعيننا، فعن عقبة بن عامر أن النبي ﷺ خرج يوماً، فصلَّى على أهل أحد صلاته على الميت، ثم انصرف إلى المنبر فقال: "**إني فرط لكم، وأنا شهيد عليكم، وإني - والله - لأنظر إلى حوضي الآن، وإني**

(١) الراوي: سهل بن سعد الساعدي، المحدث: البخاري، المصدر: صحيح البخاري، الصفحة أو الرقم: ٧٠٥٠، خلاصة الدرجة: [صحيح].

(٢) الراوي: أنس بن مالك، المحدث: مسلم، المصدر: صحيح مسلم، الصفحة أو الرقم: ٤٠٠، خلاصة الدرجة: [صحيح].

أعطيت مفاتيح خزائن الأرض، أو مفاتيح الأرض، وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي، ولكن أخاف عليكم أن تنافسوا فيها "[١].

كما أنه يقربه لنا أكثر وأكثر بإخباره لنا أن منبره على حوضه كما جاء في الحديث: "**ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على حوضي**"[٢].

ولا عجب أن يتغنى به الإمام القحطاني في نونيته بقوله:

وصراطنا حق وحوض نبينا صدق له عدد النجوم أواني
يسقى بها السني أعذب شربة ويذاد كل مخالف فتان

وبعد كل هذا الاسترسال بذكر مزايا الحوض ومكانته من العقيدة، بل مكانته من نفس رسول الله ﷺ نطرح التساؤل المنطقي: وما علاقة ذلك بموضوع الكتاب؟ ما علاقته ببيت المقدس؟ وهل ربط النبي ﷺ بينه وبين بيت المقدس؟ وما دلالة ذلك؟

الشيء المفرح والمبهج لكل نفس حزينة على حال مسجدنا الأقصى الأسير أن بيت المقدس لم يغب قط عن موضوع حساس كهذا تخفق له القلوب وتزول معه الهموم والكروب. فحوض رسولنا ﷺ له علاقة عجيبة ومبهرة ببيت المقدس!!

سبحان الله تعالى، وأي علاقة بين أمر أخروي وبيت المقدس؟

أي علاقة بين ملتقى الحبيب بأحبابه وأصحابه وإخوانه وبيت المقدس؟

هل معنى ذلك أن الذي سيذكر حوض النبي سيذكر معه بيت المقدس؟

---

(١) الراوي: عقبة بن عامر، المحدث: البخاري، المصدر: صحيح البخاري، الصفحة أو الرقم: ١٣٤٤ورقم ٦٥٩٠، ومسلم، المصدر: صحيح مسلم، الصفحة أو الرقم: ٢٢٩٦، خلاصة الدرجة: [صحيح].

(٢) الراوي: أبو هريرة، المحدث: الألباني، المصدر: صحيح الجامع، الصفحة أو الرقم: ٥٥٨٧، خلاصة الدرجة: [صحيح].

هل سيتراءى له المسجد الأقصى وهو يتذلل بالدعاء لربه أن يورده حوض الحبيب ﷺ؟

ومن جانب آخر.. هل سيكون في ذكر الحوض باعث على مراجعة مواقفنا الحالية تجاه مسرى نبينا ﷺ؟

هل سيكون لذلك دافع إلى تحمل مسؤولياتنا الكاملة لتطهيره من دنس الاحتلال اليهودي وإعادته عزيزاً شامخاً إلى حضن أمتنا الإسلامية؟

هل يتفكر أولئك المتقاعسون عن نصرته في مآلهم لحظة تمايز المؤمنين عن غيرهم حول الحوض؟

هل يذادون ويبعدون عن آنيته وكيزانه كي يبقوا في عطشهم وحرّهم وكربهم؟

هل سيقال لهم: كما لم يهمكم شأن الأقصى وهو يئن ويتوجع تحت الأصفاد اليهودية وابتعدتم بالكلية عن العمل بجد ودأب للدفاع عن حياضه، فاليوم يقال لكم: سحقاً لمن بدّل بعدي..؟

أم تراهم يستدركون أنفسهم ويبادرون إلى عمل يؤهلهم لحجز موطئ قدم بين الجموع المحتشدة حول الحوض، وليقال حينها: إن من حوى قلبه بيت المقدس وتعطرت أعماله بنصرته والدفاع عنه، وتطهرت أمواله بالإنفاق على المجاهدين والمرابطين في بيت المقدس وأكناف بيت المقدس، جدير بأن يحظى بالشربة الأغلى والأثمن من يد الحبيب الذي أسري به ليلاً من الكعبة إلى بيت المقدس في أعظم ليالي الدهر؟!

ولنقف هنا مع الحديث الذي يربط بين حوض النبي ﷺ وبيت المقدس في صورة لا أجمل منها ولا أروع فيقول: "**إن لي حوضاً ما بين الكعبة وبيت المقدس، أبيض مثل اللبن آنيته عدد النجوم وإني لأكثر الأنبياء تبعاً يوم القيامة**"[(١)].

إن نص الحديث يعطي آفاقاً واسعة جداً فقد اختار الله أحب الأماكن إلى

(١) الراوي: أبو سعيد الخدري، المحدث: الألباني، المصدر: صحيح ابن ماجه، الصفحة أو الرقم: ٣٤٨٩، خلاصة الدرجة: [صحيح].

قلب نبيه ﷺ لتكون حدوداً لحوضه الشريف، فمن جهة الكعبة المشرفة، ومن جهة بيت المقدس، وبينهما يتوسط المسجد النبوي الذي يحوي منبر رسول الله ﷺ وقد أوردنا سابقاً حديث: "**ومنبري على حوضي**". ولا تعارض هنا مع نصوص أخرى تتعلق بطول الحوض وعرضه، فما يعنينا هنا ذلك الربط المميز بين المسجد الحرام وبيت المقدس من جهة، وبين حوض النبي من جهة أخرى.. فذكرهما في موضع ذكر أمر خاص بالنبي ومحبب إليه يدل على حبه الشديد لهما، وهي دعوة إلى أتباعه وأصحابه وأمته من بعده إلى غرس حبهما في سويداء القلوب ليختلط حبهما بحب من يحبهما ﷺ.

إضاءة: لحوض النبي ﷺ مكانة رفيعة في نفسه الشريفة؛ لأن الله تعالى قد اختصه به في موقف مهيب في الآخرة، وتتجلى هذه المكانة العالية من خلال أحاديث النبي ﷺ التي يصف فيها حوضه ويبين مزاياه، دون أن يغفل الربط بينه وبين حبيبيه: المسجد الحرام والمسجد الأقصى لينقل ذلك الحب لأمته من بعده.

سادساً: عمود الكتاب وبيت المقدس

تنوّعت الأحاديث التي وردت عن الدور الكبير، الملقى على عاتق أهل بيت المقدس وأكنافه، في حفظ بيضة الإسلام والذود عنها بالغالي والنفيس، وأن ما ابتدأه النَّبي ﷺ في المدينة المنورة ومكة المكرمة، سيتم ويترسَّخ في بيت المقدس وأكنافه (الشام)، وأن هذا الدين الذي انبعث نوره من الحجاز سيعم سناه الكون من بيت المقدس وأكناف بيت المقدس..

فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: "**إني رأيت عمود الكتاب انتزع من تحت وسادتي، فنظرت فإذا هو نور ساطع عُمد به إلى الشام، ألا إن الإيمان إذا وقعت الفتن بالشام**"، وفي رواية: "**إذا وقعت الفتن فالأمن بالشام**"[(١)].

(١) الراوي: عبد الله بن عمرو بن العاص، المحدث: الألباني، المصدر: فضائل الشَّام =

وعن عبد الله بن حوالة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "**رأيت ليلة أسري بي عموداً أبيض كأنه لؤلؤة، تحمله الملائكة، قلت: ما تحملون؟ فقالوا: عمود الكتاب، أمرنا أن نضعه بالشام، وبينا أنا نائم رأيت عمود الكتاب اختلس من تحت رأسي، فظننت أن الله عز وجل قد تخلى عن أهل الأرض، فأتبعته بصري، فإذا هو نور ساطع بين يدي حتى وضع بالشام**". فقال ابن حوالة: يا رسول الله خر لي. قال: "**عليك بالشام**"(١).

ومن حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "**بينما أنا قائم إذ رأيت عمود الكتاب احتمل من تحت رأسي، فظننت أنه مذهوب به، فأتبعته بصري فعمد به إلى الشام، ألا وإن الإيمان حين تقع الفتن بالشام**"(٢).

والشاهد هنا أنّ رسول الله ﷺ يتكلم على شيء أخذ من تحت وسادته ومن

= ودمشق، الصفحة أو الرقم: ٣، خلاصة الدرجة: [صحيح]. وقد خرجه الحاكم: ٤/ ٥٠٩، وأبو نعيم في الحلية: ٥/ ٢٥٢، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٥٨): رواه الطبراني في الكبير والأوسط بأسانيد وفي أحدها ابن لهيعة وهو حسن الحديث وقد توبع على هذا، وبقية رجاله رجال الصحيح.

(١) الراوي: عبد الله بن حوالة الأزدي، المحدث: الألباني، المصدر: ضعيف الترغيب، الصفحة أو الرقم: ١٨٠٦، خلاصة الدرجة: [ضعيف]. قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٥٨): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير صالح بن رستم وهو ثقة، وعزاه الشيخ الألباني في فضائل الشَّام إلى الربعي: ٢٨، لابن عساكر: ١/ ١٠١ - ١٠٢.

(٢) الراوي: أبو الدرداء، المحدث: الوادعي، المصدر: الصحيح المسند، الصفحة أو الرقم: ١٠٥٦، خلاصة الدرجة: [صحيح]. وقد أخرجه أحمد في المسند: ٥/ ١٩٨ - ١٩٩، وفضائل الصحابة: ١٧١٧، وأبو نعيم في الحلية: ٦/ ٩٨، والبزار: برقم ٣٣٣٢ كشف الأستار، وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٨٩): رواه البزار ورجاله رجال الصحيح غير محمّد بن عامر الأنطاكي وهو ثقة، وقال أيضاً في (١٠/ ٥٧): رواه أحمد والطبراني ورجاله رجال الصحيح. قلت (إبراهيم العلي): والحديث صحيح في إسناد أحمد بن عيسى صدوق، لكنه توبع من أبي توبة الربيع بن نافع، وهو ثقة، فصح الحديث بهذا.

تحت رأسه!! فهو شيء خاص جداً به ﷺ، ولصيق جداً به، ثم يتحول بعد ذلك إلى الشيء الخاص الذي هو عمود الكتاب أو عمود الإسلام، إلى أمر يختص به الشَّام وهو ربط ذو دلالات عجيبة، ولعل من أبرز الأمور التي أظهرتها هذه الأحاديث ما يلي:

١- استقرار عمود الكتاب، أو عمود الإسلام في بلاد الشَّام حيث قامت الملائكة بنقله من تحت رأس النَّبي ﷺ، وفي هذا الأمر إشعار بأن كمال ظهور الدين وتمامه وعلوه حتى يملكه المهدي عليه السلام سيكون في بلاد الشام، كما أنّ مبعث هذا الدين ومخرجه وبدايته كان في مكة والمدينة من بلاد الحجاز.

٢- عظم المسؤولية الموكولة إلى أهل الشام، حيث إنّ الله تعالى قد عهد إليهم بحماية هذا الدين والدفاع عنه، حين وضع عمود الكتاب في أرضهم وبلادهم، والله تعالى لا يختار لهم إلا الخير، ولأنهم كما قال النَّبي ﷺ: "**خيرة عباد الله أسكنهم خيرته من أرضه** [وهي الشام]" وهذا لا يتحقق لهم إلا إذا كانوا مطيعين لله تعالى، ملتزمين بأحكام كتابه وهدي نبيه ﷺ.

٣- نصيحة النَّبي ﷺ لابن حوالة بسكنى الشام، حين طلب منه النصيحة، والرسول ﷺ لا يختار لمن يستشيره ويسأله إلا الخير؛ لأن المستشار مؤتمن، والنبي ﷺ أفضل من يستشار، فيصدق في النصيحة.

٤- إخبار النَّبي ﷺ عن الشَّام أنها معسكر الإيمان والأمان عند وقوع الفتن ونزولها، وأن الذي يريد الأمن والطمأنينة عند نزول الفتن فعليه بأرض الشَّام، فإنها موطن الأمان والإيمان.

قال العز بن عبد السلام رحمه الله: «أخبر النَّبي ﷺ أنّ عمود الإسلام الذي هو الإيمان يكون عند وقوع الفتن بالشام.

بمعنى: أنّ الفتن إذا وقعت في الدين، كان أهل الشَّام برآء من ذلك، ثابتين على الإيمان. وإن وقعت في غير الدين، كان أهل الشَّام عاملين بموجب الإيمان، وأي مدح أتم من ذلك؟

والمعني بعمود الإسلام: ما يعتمد أهل الإسلام عليه، ويلتجئون إليه، والعيان شاهد لذلك، فإنا رأينا أهل الشَّام على الاستقامة التامة، والتمسك بالكتاب والسنة عند ظهور الأهواء، واختلاف الآراء. وقد قال عبد الله بن شوذب: تذاكرنا بالشام، فقلت لأبي سهل: أما بلغك أنه يكون بها كذا؟ فقال: ولكن ما كان بها فهو أيسر مما يكون بغيرها. والذي ذكره معلوم بالتجربة، معروف بالمشاهدة، إذ الفتن من القحط والغلاء، وغير ذلك من البلاء، إذا نزلت بأرض الشَّام أخف منها في غيرها»[(١)].

إن من المعاني التي تحتملها تلك الأحاديث، استقرار الحكم والخلافة بيد المسلمين في تلك البقعة المباركة، وتصديق ذلك من كلام المصطفى ﷺ ما جاء في أنّ الخلافة ستنزل في بيت المقدس، والذي تعرضنا له في نقطة سابقة. فعن عبد الله بن حوالة الأزدي قال: «بعثنا رسول الله ﷺ لنغنم على أقدامنا، فرجعنا فلم نغنم شيئاً، وعرف الجهد في وجوهنا، فقام فينا فقال: "**اللهم لا تكلهم إليّ فأضعف عنهم، ولا تكلهم إلى أنفسهم فيعجزوا عنها، ولا تكلهم إلى الناس فيستأثروا عليهم**"، ثم وضع يده على رأسي- أو قال: على هامتي- ثم قال: "**يا ابن حوالة، إذا رأيت الخلافة قد نزلت الأرض المقدَّسة، فقد دنت الزلازل والبلابل والأمور العظام، والساعة يومئذ أقرب من الناس من يدي هذه من رأسك**"»[(٢)].

وكما جاء في الحديث عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "**عمران بيت المقدس، خراب يثرب، وخراب يثرب خروج الملحمة، وخروج الملحمة فتح القسطنطينية، وفتح القسطنطينية خروج الدجّال**"، ثم ضرب بيده

---

(١) ترغيب أهل الإسلام: ٣٠.

(٢) الراوي: عبد الله بن حوالة، المحدث: الألباني، المصدر: صحيح الجامع، الصفحة أو الرقم: ٧٨٣٨، خلاصة الدرجة: [صحيح]. وقد أخرجه أبو داوود: برقم ٢٥٣٥، وأحمد في المسند: ٥/ ٢٨٨، والحاكم في المستدرك: ٤/ ٤٢٥، وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي.

على فخذ الذي حدثه أو منكبه ثم قال: "**إن هذا لحق كما أنك هنا، أو كما أنك قاعد**" يعني: معاذ بن جبل(١).

وعمران بيت المقدس يكون بالخلافة النازلة فيه واستقرار المهدي خليفةً للمسلمين هناك..

وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: «خطبنا الرسول ﷺ وذكر الدجّال.. وقال فيه: "**إن المدينة تنفي خبثها منها كما ينفي الكير خبث الحديد، ويدعي ذلك اليوم يوم الخلاص**". قالت أم شريك: فأين العرب يا رسول الله يومئذ؟ قال: "**هم يومئذ قليل، وجلّهم ببيت المقدس، وإمامهم مهدي رجل صالح، فبينما إمامهم قد تقدم يصلي بهم الصبح، إذ نزل عيسى بن مريم عليه السلام..**"» الحديث(٢).

وفي السياق نفسه تأتي مجموعة من المعاني والدلالات التي تحملها الأحاديث في النقاط التالية بما يعزز ما أوردناه في هذه النقطة.. وزيادة.

إضاءة: يتوج رسول الله ﷺ بيت المقدس وأكنافه أوسمةً رفيعة؛ لعل أهمها أنّ تمام أمر هذا الدين وقمة ظهوره وعلوه سيكون في بيت المقدس، وذلك بعد انتقال عمود الكتاب من تحت رأسه إلى الشام.

---

(١) الراوي: معاذ بن جبل، المحدث: الألباني، المصدر: صحيح الجامع، الصفحة أو الرقم: ٤٠٩٦، خلاصة الدرجة: [صحيح]. وقد أخرجه أحمد في المسند: ٥/ ٢٤٥، وأبو داوود: برقم ٤٢٩٤، والطبراني في الكبير: ٢٠/ ١٠٨، برقم ٢١٤، ومسند الشاميين: برقم ٣٥١٤، وهو حديث صحيح، قال ابن كثير: هذا إسناد جيد وحديث حسن وعليه نور الصدق وجلال النبوة.

(٢) أخرجه أبو داوود: برقم ٤٣٢٢، وابن ماجه: برقم ٤٠٧٧، وابن خزيمة في التوحيد: ١٢١، والبيهقي في البعث: برقم ١٦٠، وابن عساكر في تاريخ دمشق: ١/ ٢٩٣، ٢٩٤، والآجري في الشريعة: ٣٧٥، والطبراني في الكبير: ٨/ ١٧٢، برقم ٧٦٤٤/ ٧٦٤٥، والحاكم: ٤/ ٥٣٦، والمقدسي في فضائل بيت المقدس: برقم ٣٧، وقد صححه الحاكم وأقره الذهبي.